

آليات إسقاط النظرية السوسيولوجية المعاصرة على الظاهرة الاتصالية

الماركسية الحديثة / لويس ألتوسير

مقدمة

في إطار الحوار المستمر بين النظرية السوسيولوجية ودراسات الاتصال، توفّر إسهامات الماركسية الحديثة (Modern Marxism) ولا سيّما إعادة القراءة البنيوية للماركسية التي قدّمها الفيلسوف الفرنسي لويس ألتوسير (Louis Althusser, 1918–1990) إطارًا تحليليًا بالغ الأهمية لفهم الكيفية التي تعمل بها الظاهرة الاتصالية بوصفها آلية أيديولوجية وبنيوية في المجتمع المعاصر. فقد مكّن تركيز ألتوسير على الأيديولوجيا، وتشكّل الذات، ومفهوم التحديد الفائق (Overdetermination) من تطوير أدوات نقدية تسمح بتحليل الاتصال لا بوصفه تبادلًا للمعلومات فحسب، بل باعتباره قوة تأسيسية في إعادة إنتاج البنى الاجتماعية وتحولها.

وعليه، يسعى هذا المقال إلى تحليل الآليات الرئيسة التي تُسقط من خلالها النظرية السوسيولوجية المعاصرة—المؤسّسة على الماركسية الألتوسيرية—على الظاهرة الاتصالية. ويتناول المقال أجهزة الدولة الأيديولوجية، والاستدعاء، والسببية البنيوية، والتحديد الفائق، فضلًا عن إشكاليات العلاقة بين البنية والفاعلية، والنقد الذي وُجّه إلى أطروحات ألتوسير، والتوسعات اللاحقة التي طوّرها منظّرون معاصرون.

1. الماركسية البنيوية والقطيعة الإبستمولوجية

أحدث لويس ألتوسير تحوّلًا جذريًا في النظرية الماركسية حين طرح مفهوم القطيعة الإبستمولوجية (Epistemological Break) بين ماركس الشاب ذي النزعة الهيجلية-الإنسانية، وماركس الناضج علميًا صاحب رأس المال (Capital)، كما بسط ذلك في كتابه من أجل ماركس (For Marx) الصادر عام 1965. ففي هذا العمل، يؤكد ألتوسير أن المجتمع يشكّل كلاً مركّبًا ومفصليًا، تهيمن فيه البنية الاقتصادية، غير أنها تتعايش مع ممارسات اجتماعية أخرى تتمتع بدرجة من الاستقلال النسبي.¹

وتتعامل الماركسية البنيوية، في هذا التصوّر، مع الماركسية بوصفها علمًا للبنى الموضوعية، مبتعدةً بذلك عن القراءات التاريخية أو الإنسانية.² وضمن هذا الإطار، لا يُختزل الاتصال في كونه وسيطًا للتعبير الإنساني، بل يُدرج بوصفه عنصرًا مدمجًا في تشابك الممارسات والبنى الاجتماعية. وإذ يشدّد ألتوسير على الصرامة العلمية والسببية البنيوية، فإنه يريّ الأفضية لفهم الاتصال كآلية بنيوية لا يمكن اختزالها في وظائف تعبيرية أو ذاتية.³

2. أجهزة الدولة الأيديولوجية وجهاز الاتصال

يُعدّ مفهوم أجهزة الدولة الأيديولوجية (Ideological State Apparatuses – ISAs) أحد المفاهيم المركزية في نظرية ألتوسير، وقد طُرِحَ بوضوح في مقاله الشهير الأيديولوجيا وأجهزة الدولة الأيديولوجية (Ideology and Ideological State Apparatuses). ويميّز ألتوسير بين أجهزة الدولة القمعية (Repressive State Apparatuses – RSAs) كالشرطة والجيش، وبين أجهزة الدولة الأيديولوجية، مثل الأسرة، المدرسة، الكنيسة ولا سيّما جهاز الاتصال (الصحافة، الإذاعة، التلفزيون، إلخ)، التي تعمل من خلال الأيديولوجيا لا بالقسر المباشر.⁴ وتؤدي أجهزة الاتصال هذه وظيفة مركزية في إعادة إنتاج الأيديولوجيا المهيمنة، عبر تشكيل الإدراكات والتصورات والسلوكيات الفردية بصورة غير مباشرة.⁵ وبهذا المعنى، يغدو الاتصال أداة أيديولوجية تُسهم في تشكيل الذات وترسيخ البنى الاجتماعية القائمة.⁶

3. الاستدعاء: تشكّل الذات عبر الاتصال

يشكّل مفهوم الاستدعاء (Interpellation) حجر الزاوية في نظرية ألتوسير، حيث يرى أن الأيديولوجيا تُنادي الأفراد بصفتهم ذاتًا. ويضرب ألتوسير مثال الشرطي الذي يصيح: أنت هناك؟، فيلتفت الفرد، وبذلك يُؤسّس بوصفه ذاتًا اجتماعية.⁷ ولا يقتصر هذا النداء على السياقات القانونية، بل يمتد إلى مختلف أشكال الاتصال اليومية. وفي دراسات الإعلام والاتصال، استُخدم هذا المفهوم لبيان كيف تقوم الخطابات الإعلامية باستدعاء الجمهور وإقحامه في رؤى كونية معيّنة.⁸ وعليه، لا يعمل الاتصال مجرد وسيط لنقل المعنى، بل يمارس دورًا بنيويًا في تكوين الذات وإدماجها أيديولوجيًا.

4. السببية البنيوية والتحديد الفائق في الاتصال

تتجلّى إحدى أهم ابتكارات ألتوسير النظرية في مفهومي السببية البنيوية (Structural Causality) والتحديد الفائق (Overdetermination)، اللذين يرفضان التفسير الاقتصادي أو النموذج التبسيطي للقاعدة والبنية الفوقية.⁹ فالظواهر الاجتماعية، وفق هذا التصور، تتحدد بتفاعل بُنى متعددة: اقتصادية، وسياسية، وأيديولوجية. وعند إسقاط هذه المفاهيم على الاتصال، يتّضح أن الظاهرة الاتصالية لا يمكن ردّها إلى وظيفة اقتصادية أو إلى نوايا مرسلين أفراد، بل هي محدّدة فائقًا بجملّة من القوى البنيوية، كالسلطة، والأيديولوجيا، والتنظيمات المؤسسية.¹⁰

5. الاتصال بين الممارسة البنيوية والفاعلية الإنسانية

وجّه عدد من الباحثين انتقادات إلى ألتوسير، مفادها أن بنيويته المناهضة للإنسانية تُقصي الفاعلية الإنسانية والخبرة الاتصالية المعيشة.¹¹ ففي إعادة قراءته للجدل بين ألتوسير والمؤرّخ البريطاني إدوارد بالمر تومبسون (E. P. Thompson, 1924–1993)، يرى الباحث النمساوي كريستيان فوكس (Christian

(Fuchs) أن ألتوسير أهمل الاتصال لصالح البنى التجريدية.¹² في المقابل، تمنح ماركسية تومبسون الإنسانية أولوية للتجربة الإنسانية والممارسات الاتصالية، غير أنها قد تنزلق إلى الذاتية وإهمال القيود البنيوية.¹³ ومن ثمّ، يقترح فوكس تطوير نظرية نقدية للاتصال تمزج بين الإدراك البنيوي الألتوسيري والانتباه الإنساني للممارسة التواصلية.¹⁴ ووفق هذا المنظور، يصبح الاتصال العملية التي تُستخدم لإنتاج العلاقات الاجتماعية وإعادة إنتاجها، وسيطاً بين البنية والفاعلية.¹⁵

6. الاتصال بوصفه اشتراكاً مشاعياً وجدلية البنية والفاعلية

يوسّع فوكس هذا التحليل باقتراح مفهوم الاشتراك المشاعي (Commoning)، حيث يُنظر إلى الاتصال بوصفه عملية تشاركية لإنتاج المعنى والعلاقات الاجتماعية جماعياً.¹⁶ وهكذا، يغدو الاتصال ساحة حيوية تُدار فيها الجدلية بين البنية والفاعلية، وبين الاقتصادي وغير الاقتصادي.¹⁷ وبذلك، لا يقتصر الاتصال على إعادة إنتاج البنى الاجتماعية، بل قد يشكل أيضاً فضاءً محتملاً للتحوّل والصراع عبر تشكّل ذوات جماعية جديدة.

7. تطبيقات ما بعد ماركسية

كان لأفكار ألتوسير أثر بالغ في الفكر ما بعد الماركسي والنظرية الثقافية. فقد استثمرت الفيلسوفة الأمريكية جوديث باتلر (Judith Butler, 1956–) مفهوم الاستدعاء في دراسات الجندر، مبيّنة كيف تتشكّل الهويات الجندرية عبر النداء الأيديولوجي.¹⁸ كما تفاعل مفكرون مثل جاك دريدا (Jacques Derrida)، وميشيل فوكو (Michel Foucault)، جيل دولوز (Gilles Deleuze)، وآلان باديو (Alain Badiou)، وسلافوي جيжек (Slavoj Žižek) مع الماركسية البنيوية الألتوسيرية في تحليلاتهم للسلطة والذاتية.¹⁹ في المقابل، وجّه جاك رانسيير (Jacques Rancière) نقداً حاداً لألتوسير، معتبراً أن الفصل بين النظرية والممارسة السياسية ينطوي على نزعة نخبوية.²⁰ كما يرى نقاد آخرون أن المقاربة البنيوية تهمش الخبرة الاتصالية المعاشة والفاعلية الإنسانية.²¹

8. الألتوسيرية ودراسات الاتصال المعاصرة

من أجل إسقاط فعّال لأدوات ألتوسير على الظواهر الاتصالية المعاصرة، تبرز جملة من الآليات التحليلية، من أبرزها:

- التعامل مع الاتصال بوصفه جهازاً أيديولوجياً محورياً في إعادة إنتاج النظام الاجتماعي.
- تحليل عمليات الاستدعاء داخل الخطاب الإعلامي والمؤسسي.
- توظيف السببية البنيوية والتحديد الفائق لفهم تعدد قوى التشكيل الاتصالي.

- إدماج البعد الإنساني للممارسة الاتصالية لمعالجة محدوديات البنيوية الصارمة.
- النظر إلى الاتصال كساحة اشتراك مشاعي تتفاعل فيها البنية والفاعلية.
- استثمار الامتدادات الما-بعد-ماركسية لتحليل الهوية والخطاب والسلطة.

الخاتمة

يوفر إعادة بناء لويس ألتوسير للماركسية إطارًا نظريًا قويًا لتحليل الظاهرة الاتصالية ضمن السوسيولوجيا المعاصرة. فمن خلال موضوعة الاتصال بوصفه جهازًا أيديولوجيًا، وفضاءً للاستدعاء، وممارسةً محدّدة فائقة بنيويًا، يتجاوز هذا الإطار النماذج التبسيطية للعلاقة بين القاعدة والبنية الفوقية. غير أن تركيزه المناهض للإنسانية يستدعي استكمالَه بمقاربات تُبرز الفاعلية الاتصالية والخبرة الإنسانية والجدلية بين البنية والتحوّل.

وعليه، فإن الجمع بين الماركسية الألتوسيرية والمادية الاتصالية والنظرية النقدية يتيح فهمًا أعمق لدور الاتصال في إعادة إنتاج البنية الاجتماعية وفي زعزعتها المحتملة. فالاستمرار لا يعكس مجرد علاقات القوة، بل يصوغها، وقد يشكّل—في شروط معيّنة—أفقًا للاشتراك والتغيير الاجتماعي.